مغامرات هاكلبري فن .. رواية الأطفال التي لم تكن كذلك

عندما ابتعت رواية (مغامرات هاكلبري فين) للكاتب الكبير (مارك توين) كنت أظن أنني أبتاع رواية مكتوبة في المقام الأول للأطفال ، إلا أنه عندما تعمقت في القراءة ، وانسابت قطرات من دموعي فأحدثت دويا على صفحات الرواية الصغيرة اكتشفت أن (مارك توين) يقدم من خلال روايته تصويرا متقنا للمجتمع الأمريكي في الفترة قبيل الحرب الأهلية ، ثم سرعان ما اكتشفت أن ما خطه (توين) بقلمه يتعدى المجتمع الأمريكي ليشرح من خلال مشرطه المغموس بالحبر النفس البشرية في كل مكان وزمان ، وهذا بحق هو الأدب العالمي ، الذي يتجاوز حدود المكان والزمان ويتواصل مع الإنسان بشكل عام .

تبدأ الرواية بشخصية (هاكلبري فين) الفتى الصغير الذي تتقاذفه الأقدار بعشوائية كالبحر الهائج المتلاعب بسفينة صغيرة ضلت الطريق للمرفأ فاستسلمت للأمواج العاتية ترسو بها حيث تشاء .. من اللحظات الأولى نعلم أن الرواية ما هي إلا تكملة لرواية (مغامرات توم سوير) التي قدمها (توين) للأدب العالمي من قبل فلاقت نجاحا كبيرا دفعه لتقديم شخصية (هاكلبري) كشخصية أساسية بعد أن كانت شخصية فرعية في الرواية الأولى ، يستقر الحال بالفتى الصغير (هاك) في إحدى القرى الريفية الأمريكية التي يتسم طابع الحياة فيها بالهدوء والرتابة ، أودع (هاك) ثروته التي ورثها لدى قاضى المدينة ، ورضي بالحصول على دولار واحد يوميا كعائد يومي على مدخراته الثمينة ، وبدأ يتذوق طعم الحياة الآمنة الهادئة للمرة الأولى في حياته .

إلا أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، حيث يظهر والد (هاك) في القرية الوديعة فجأة ، ويستطيع الوصول لإبنه وتهديده بالقتل ما لم يعطه المال الكافي لشراء الخمور الرخيصة التي يدمنها الأب .. يرضخ الفتى الصغير تحت تهديد والده ويبدأ في إعطاؤه النقود ، إلا أن الأمور تتطور أكثر عندما يختطفه الأب المخمور تحت جنح الظلام ويحتجزه في منزل صغير على أطراف القرية الهادئة .

يبدأ الأب في تعذيب (هاك) بوحشية بشكل شبه يومي ، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه الهروب من هذا الجحيم المقيم ، وهكذا يأخذنا (مارك توين) عبر فصل كامل من فصول روايته في تصوير خطة (هاك) في الهروب من منزل الأب ، وفي النهاية يستطيع الفتى تحقيق خطته بشكل جهنمي بحيث يظن جميع أهل القرية –بما فيهم الأب نفسه– بأن لصا قد اقتحم الكوخ الذي كان (هاك) محتجزا به وقام بقتله والإلقاء بجثته في النهر ، بينما كان (هاك) في طريقه إلى جزيرة منعزلة على الطرف الأخر من القرية .

قابل (هاك) على الجزيرة المنعزلة صديقه (جيم) .. العبد الأسود طيب القلب ، والذي يبحث عن الحرية وسط مجتمع لا يقبل الزنوج مواطنين أحرار فيه ، حيث كانت الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الوقت ترضخ تحت نير احتقار الزنوج واستخدامهم كعبيد لا حق لهم في شيء ...وهنا يبدأ (مارك توين) في عرض عيوب هذا الوضع وتأثيره السلبي على الحياة الاجتماعية في أميركا ، ويظهر (جيم) كرجل مخلص وصادق ويفدى أصدقاؤه بحياته ، حتى أنه تصدى لأفعى (الجرس) السامة حتى ينقذ صديقه (هاك) منها ، ويعيش الصديقان على الجزيرة أياما من السعادة بعيدا عن أذى الناس ، حتى يعلم (هاك) مصادفة أن أهل القرية يتهمون العبد الهارب (جيم) بأنه قاتل (هاك) ، وأنهم قادمين للبحث عنه في الجزيرة ، وما يكد الاثنان يسمعان هذا الخبر حتى يجمعا ما تيسر لهم من متاع ويفرون هاربين على سطح طوف صغير .

تتابع الأحداث بعد ذلك وتتشعب ، وتأخذنا طوف (جيم) و (هاك) عبر النهر من مدينة أمريكية لأخرى ، ونقابل معهم أصنافا شتى من البشر ، مثل اثنان من النصابين الذين يجوبون المدن الريفية يقدمون عروضا مسرحية متواضعة ويبيعون الأدوية المغشوشة ، وغيرها من أفعال النصب ، ويستطيع (مارك توين) أن يصف أشخاص رواياته بكثير من التفصيل الذي يقف على الشعرة الفاصلة بين الإمتاع والإملال ، ويتنقل بين الأحداث بخفة ورشاقة فلا يمل القارئ أثناء القراءة أبدا ، بل على العكس يظل في انتظار الحدث التالي بشغف.

واستطاعت هذه الرواية الساحرة أن تستولي على حواسي تماما ، فصرت أقهقه عند بعض القفشات والمواقف الظريفة التي يقوم بها (هاك) ، أو أضحك على سذاجة العبد الأسود (جيم) أو أمعن التفكير في أسلوب (توم سوير) في حل أتفه المشاكل بأعقد الأساليب مثل إصراره على تعقيد هروب العبد (جيم) من محبسه الذي استطاع تجار العبيد حبسه فيه تمهيدا لبيعة ، حيث صمم (توم) على أن يحفر (جيم) نفقا تحت الأرض بملعقة صدئة ، على الرغم من أنه كان من الممكن تحرير (جيم) بمجرد رفع الفراش الذي تم تثبيت السلسلة التي تربطه إليه !

وبينما انتابتني موجات الضحك في بعض أركان الرواية ، كان للتراجيديا نصيب كبير في عدد كبير من أحداث الرواية ، ولن أنسى ما حييت الرجفة التي سرت في أوصالي عندما كان (جيم) يحكى عن اشتياقه للعودة لزوجته وأبناؤه ، وخاصة ابنته الصماء ، أيضا لن أنسى العائلة التي لجأ إليها (هاك) في إحدى مغامراته وأكتشف أن للعائلة خصومة ثأرية مع عائلة أخرى ،

وللشبه بين المجتمع الأمريكي آنذاك والمجتمع المصري اليوم نصيب كبير ، استطاع (توين) وصف جرائم الثأر المصرية من خلال وصفة لحوادث الثأر عند تلك العائلة ، وينتهي هذا الفصل من الرواية بمقتل شباب في عمر الزهور في عملية ثأرية حمقاء لا يعلم فيها القاتل لماذا يقتل ويجهل فيها المقتول لماذا يموت .

وبعد العديد من المغامرات تنتهي الرواية بمغامرة أخيرة ، حيث يتعرض (توم سوير) لإطلاق النار ، ويغامر العبد (جيم) بحريته من أجل إنقاذ حياته ، ويقوم (هاكلبري فين) بكشف حقيقة صفاته النبيلة لأهل القرية فيقررون عتقه ، ويعود (هاكلبري فين) للحياة بسلام من جديد بعد أن قام بالعديد من المغامرات المثيرة .

وهكذا تنتهي قصة (مغامرات هاكلبري فين) ، التي وصفت آنذاك بالرواية الأمريكية العظيمة ، والتي تم وصف (مارك توين) بسببها بأنه أعظم الساخرين الأمريكيين في عصره ، هذا الذي ولد بمدينة نبيال على ضفاف نهر الميسيسبي ، والذي استلهم أحداث رواياته من قصص الصيادين على ضفاف هذا النهر .